

الحلقة الرابعة  
القَصَصُ الدِّينِيُّ  
العَرَبُ فِي أَوْرَبَا

العَرَبُ فِي فَرَنْسَا

عبد الحميد جودة السحار

٧



لم يكتفِ سُليمانُ بنُ عبدِ الملكِ بنكبةَ موسى في شخصه ، حتّى نكبَ جميعَ أولاده ؛ فأمرَ محمدُ بنُ يزيد ، أميرَ إفريقية ، بأخذِ عبدِ الله بنِ موسى بنِ نصير ، وتغذيبه ، واستئصالِ أموالِ بنى موسى ؛ فسجنه محمدٌ وعذّبه ، ثم قتلَه . ولم يَعِشْ سُليمانُ بنُ عبدِ الملكِ بعدَ ذلك طويلاً ، ولم ينعم بالملكِ ورفاهيته ، فقد مات شاباً ، وأصبحَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ أميرَ المؤمنين .

كانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يرى أنَّ خُطوطَ المسلمين قد امتدّت ، وكانَ رأيُه انتقالَ الغزاةِ الذينَ فتحوا الأندلسَ منها ، لانقطاعهم عن المسلمين ؛ ولكن لم يُصادِفْ ذلكَ الرَّأى قَبولاً ، فكيف يتركُ المنتصرون

أَرْضًا قَدْ فَتَحَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، هِيَ الْجَنَّاتُ الَّتِي وَعَدَ  
اللَّهُ بِهَا الْمُتَّقِينَ ؟

وَلِيَّ إِمْرَةٍ الْأَنْدَلُسِ السَّمْحُ بْنُ مَالِكٍ الْخَوْلَانِيُّ ،  
وَأَمْرَهُ الْخَلِيفَةُ عَمْرُ بْنُ يُحْمَسَ الْأَرَاضِي ، وَيُخْرِجُ  
مِنْهَا مَا كَانَ عَنُوتَ ، خُمُسًا لِلَّهِ مِنْ أَرْضِهَا وَعِقَارِهَا ،  
وَيُقَرِّرُ الْقُرَى فِي أَيْدِي غَنَامِهَا ، بَعْدَ أَنْ يَأْخُذَ  
الْخُمُسَ ، وَأَمْرَهُ بِأَنْ يَكْتُبَ إِلَيْهِ بِصِفَةِ الْأَنْدَلُسِ  
وَأَنْهَارِهَا .

كَانَ السَّمْحُ مُدَبِّرًا حَكِيمًا ، وَقَائِدًا بَاسِلًا ،  
وَسِيَاسِيًّا حَازِمًا ، رَأَى أَنَّ عَصِيَّةَ الْعَرَبِ لَا زَالَتِ  
تَسُودُ الْأَنْدَلُسَ ؛ فَالْمُشَاحَنَاتُ قَائِمَةٌ بَيْنَ الْيَمْنِيَّةِ  
وَالْمُضَرِّيَّةِ ، وَالْقِتَالُ دَائِرٌ بَيْنَ الشَّامِيِّينَ وَالْبُرْبَرِ ، وَأَنَّ  
الْمَسِيحِيِّينَ الْمُنْهَزَمِينَ قَدْ كَوَّنُوا فِي شِمَالِ الْأَنْدَلُسِ  
عِصَابَةً ، وَكَانُوا ذَوِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ، فَتَارُوا بِالْعَرَبِ  
ثَوْرَةَ الْأَسْوَدِ ، وَأَبَوْا إِلَّا الدَّفَاعَ عَنْ دِينِهِمْ وَوَطَنِهِمْ ؛



فرأى أن يسوس مملكته الفائزة بالحزم .

كان عمرُ بنُ عبد العزيز شديدَ الخوفِ على الإسلام ، فهالَه بقاءُ ذلك العددِ الكبيرِ من المسيحيين في تلك البلاد ، واستشعرَ من بقائهم بين أظهرِ المسلمين خطراً شديداً ، فكتبَ إلى السَّمَحِ بإجلاء مَسِيحِيَّيْ إسبانيا وجنوبِ فرنسا إلى إفريقيَّة ، حيثُ لا يكونُ من وجودهم خطرٌ على الدولة الناشئة .

فكتبَ السَّمَحُ إلى أمير المؤمنين ، عمر بن

عبد العزيز :

« إِنَّ الإِسْلَامَ يَنْمُو وَيَنْتَشِرُ ، وَتَمْتَدُّ شِمَارِيخُهُ فِي الأَنْدَلُسِ ، وَسَرَعَانْ مَا تَدِينُ هَذِهِ الْبِلَادُ جَمِيعُهَا بِدِينِ الإِسْلَامِ » .

ورأى السَّمَحُ بنُ مالكٍ أن يَشْغَلَ النَّاسَ بِالْغَزَوَاتِ ، حَتَّى تَسْتَنِيَمَ الْفِتَنُ ، وَتَخْلُصَ لَهُ وَجُوهُ النَّاسِ .

عَبَّ السَّمْحُ جُيُوشَهُ ، وَسَارَ بِهَا قَاصِدًا فَرَنسَا ؛  
 فَحَاصَرَ أَرُبُونَةَ وَاسْتَوَلَى عَلَيْهَا ، وَشَحَنَ الْمَدُنَ  
 الْمُجَاوِرَةَ لَهَا بِالْمُقَاتِلَةِ ، ثُمَّ زَحَفَ صَوْبَ « طَلُوزَةِ » ،  
 وَكَانَتْ عَاصِمَةُ أَكْتِيَانِيَّةَ ، فَصَبَّ الْمُنْجَنِّقَاتِ وَسَائِرَ  
 آلَاتِ الْحِصَارِ ، وَضَيَّقَ الْخِنَاقَ عَلَيْهَا ، حَتَّى كَادَتْ  
 تَخْرُ سَاجِدَةً تَحْتَ أَقْدَامِهِ .

رَأَى « أَوْد » دُوقَ أَكْتِيَانِيَّةَ أَنَّ سَقُوطَ تِيلُوزِ  
 ( طَلُوزَةِ ) فِي أَيْدِي الْعَرَبِ ، سَيُهَدِّدُ سُلْطَانَهُ ،  
 وَيَجْعَلُ فَرَنسَا كُلَّهَا تَحْتَ رَحْمَتِهِمْ ، فَراحَ يَجْمَعُ  
 الْجُمُوعَ وَيَحْشِدُ الرِّجَالَ ، وَيُثِيرُ الْهَمَمَ ؛ حَتَّى حَشَدَ  
 جَيْشًا عَظِيمًا ، انْطَلَقَ بِهِ لِنَجْدَةِ تِيلُوزِ .

أَقْبَلَ « أَوْد » بِجَيْشِ يَسُدُّ الْفُضَاءَ ، حَتَّى إِنَّ الْغُبَارَ  
 الْمَتَطَايِرَ مِنْ زَحَفِ أَقْدَامِهِمْ ، كَانَ يُغْطِي عَيْنَ



الشَّمْس ، فرأى السَّمْحُ أن يَجْمَعَ جُنُودَهُ ، وأن  
يتأهَّبَ لِلْقِتَالِ المَرِير ، الذى سِيدُورُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ  
الَّذِينَ أَجْهَدَهُمْ حِصَارُ الْمَدِينَةِ ، وَالْجَيْشِ الْقَادِمِ لِلذُّودِ  
عَنْ أَعْرَاضِهِمْ ، وَدِينِهِمْ ، وَحُرِّيَّتِهِمْ ، وَأَمْنِ بِلَادِهِمْ .  
وَرَا حَ السَّمْحُ يَتْلُو : « إِنَّ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ  
لَكُمْ » . وَبَدَأَ الْقِتَالُ ، وَمَشَى الرَّجَالُ إِلَى الرَّجَالِ ،  
وَدَارَتْ مَعْرَكَةٌ رَهِيْبَةٌ ، فَبَدَأَ كَأَنَّمَا قَدْ مَشَتْ الْجِبَالُ  
إِلَى الْجِبَالِ ، وَرَا حَ السَّمْحُ يُحَمِّسُ الْمُسْلِمِينَ ،  
وَيَذَكِّرُهُمْ بِأَفْضَلِ مَا فِيهِمْ ، وَيَشْدُو عَلَى الْأَعْدَاءِ ،  
وَيُسْرِعُ إِلَى صَفْوَفِهِ الَّتِي يَدْبُ فِيهَا الْوَهْنُ ، يَشْدُو  
الْأَزَرَ ، وَيَرْتَقِي الْفَتْقَ ، وَيُبَشِّرُ الصَّابِرِينَ مِنْهُمْ بِمَا  
وَعَدَهُمُ اللَّهُ مِنْ جَنَّاتٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ  
وَالْأَرْضُ .

وَطَفِقَ السَّمْحُ يُجُولُ فِي الْمِيدَانِ كَالْأَسَدِ ، وَسَيْفُهُ  
يَقْطُرُ دَمًا ، وَيَحْمِلُ عَلَى الْعَدُوِّ حَمْلَ الصَّنَادِيدِ ؛ وَفِيمَا

هو في صَوْلَتِهِ ، وَجَوْلَتِهِ ، أَصَابَتْهُ طَعْنَةٌ ، خَرَّ بِهَا  
صَرِيحًا عَنْ جَوَادِهِ .

٣

رَأَى الْمُسْلِمُونَ قَائِدَهُمْ مُجَدَّلًا ، وَهُجُومَ « أَوْد »  
بِرَجَالِهِ الْمُسْتَبْسِلِينَ ، فَفَتَّ ذَلِكَ فِي أَعْضَادِهِمْ ،  
وَنَكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ ، وَتَرَكَوا قَتْلَاهُمْ فِي الْعَرَاءِ ؛  
وَقُتِلَ كَثِيرٌ مِنْ صَنَادِيدِ الْمُسْلِمِينَ ، وَكَادَ الْأَمْرُ يَنْقَلِبُ  
إِلَى هَزِيمَةٍ نَكْرَاءٍ ، لَوْلَا أَنْ تَقَدَّمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيُّ  
يَقُودُ الْجَيْشَ ، وَيُلْمُ شَعَثَ الْمُسْلِمِينَ ، وَيَعُودُ بِهِمْ  
سَالِمِينَ إِلَى أَرْبُونَةَ .

وَشَاعَ خَبَرُ هَذِهِ الْمَوْقِعَةِ ، فَدَبَّتِ الْحَمَاسَةُ فِي  
قُلُوبِ أَهَالِي « اللَّاتِفْدُون » وَ « الْبِيرَانَةِ » ، وَهَبُّوا  
لِيَثُورُوا عَلَى الْعَرَبِ ، وَيَسْتَعِيدُوا حُرِّيَّتَهُمْ . وَلَكِنْ  
الْعَرَبُ كَانُوا مُتَحَصِّنِينَ فِي أَرْبُونَةَ ، وَقَدْ جَاءَتْهُمْ  
الْإِمْدَادَاتُ مِنَ الْأَنْدَلُسِ ، فَعَادُوا يَشْنُونَ الْغَارَاتِ



منها على البلاد المجاورة ؛ وراحتْ جيوشهم تتقدّم ،  
وتنتقل من نصر إلى نصر ، فعاد للعرب هيبّتهم ،  
وراح أهالي البلاد يترقبون الفرصة ليشوروا ثورتهم ،  
ويخرجوا العرب من ديارهم .

وظلَّ « أود » دوق أكتيانية يتجنب القتال ، لأنَّ  
غارات العرب كانت واقعةً على أطراف بلاده ،  
ولكنه كان يخشى إن شغل بحرب العرب ، أن ينتهز  
شارل مارتل هذه الفرصة ، ويقتطع بعض أجزاء  
إمارته ، ويضيفها إلى مملكته .

#### ٤

عُيِّنَ عيدُ الرَّحْمَنِ الغَافِقِيِّ واليًّا للأندلس ، في صَفَرِ  
سنة ١١٣ هجرية ( أبريل سنة ٧٣١ م ) وكان من  
زُعماء اليمانية ، وكبار القواد . بدأ ولايته بزيارة  
الأقاليم ، وتنظيم شئونها ، واهتم بالجيش ، فأنشأ  
فرقا من البربر ، أسند قيادتها إلى قواد من العرب .



وكاد الأمرُ يستتبُّ لعبدِ الرَّحْمَنِ ، لولا أنَّ قائدًا  
من قُوَادِ البربرِ ، هو عثمانُ بنُ أبي نَسْعَةَ ، وكان  
يحْكُمُ الولاياتِ الشَّماليةَ ، قد أَحْنَقَهُ توليةُ عبدِ  
الرَّحْمَنِ ، فقد عُيِّنَ واليًا قَبْلَهُ ، ولكن لم تَدُمِ ولايتهُ  
أكثرَ من ثلاثِ سنواتٍ ، ثمَّ عُيِّنَ عبدُ الرَّحْمَنِ .

كان الخلافُ يشتَجِرُ بين العربِ والبربرِ منذ  
الفتحِ ؛ فالبربرُ يحْقِدُونَ على العربِ ، لأنَّهم كانوا  
يتولَّونَ المناصبَ الرَّفِيعَةَ ، بينما قامَ البربرُ بحملِ جُلِّ  
أعباءِ الفتحِ .

فَكَرَّ ابنُ أبي نَسْعَةَ في الاستِيعَانَةِ « بأود » أميرِ  
أَكْتِيَانِيَةِ ، لِيَشُقَّ عَصَا الطَّاعَةِ على عبدِ الرَّحْمَنِ ،  
عسى أن تعودَ إليه إمَارَةُ الأندلسِ ، فسعى إليه .  
ورحَّبَ « أود » بهذا التَّقَرُّبِ ، فقد كانَ يَخْشَى  
جيوشَ شارلِ مارتلِ ، ورأى في مُهادَنَةِ العربِ  
فُرْصَةً للتَّفَرُّغِ لشارلِ .

وتزوج ابن أبي نَسْعَةَ ابنة « أود » فوثقَ ذلك عُرَا  
التَّحَالُفِ بَيْنَ الدَّوَقِ وابنِ أَبِي نَسْعَةَ . وارتاب  
عبدُ الرَّحْمَنِ في أمرِ عَثْمَانَ بنِ أَبِي نَسْعَةَ ، فَبَعَثَ  
جَيْشًا إلى الشَّمالِ ، وما إن سَمِعَ عَثْمَانُ نبأَ هذا  
الجيشِ ، حتَّى فرَّ من « بويكارد » على البرِينيه ، إلى  
شُعْبِ الجبالِ الدَّاخِلِيَّةِ ؛ فقاتله قائدُ عبدِ الرَّحْمَنِ ،  
وراحَ يَقتَفِي أثرَه من صَخْرَةٍ إلى صَخْرَةٍ ، حتَّى قَتَلَه  
وهو يُدافعُ عن نفسه ، وأَسِرَتْ زَوْجَتُهُ لاميچيا ،  
وأرسلَتْ إلى دِمَشقَ .

رأى « أود » ما حلَّ بحليفه وصهره ، فراحَ يَجمَعُ  
جُمُوعَه ، ويتأهَّبُ للنَّزالِ ، ورأى عبدُ الرَّحْمَنِ ذلكَ  
التَّأهَّبَ ، فجمَعَ جُيُوشَه وسارَ نحوَ الشَّمالِ ، لِيُشارَ  
لِمَقْتَلِ السَّمَحِ ، وَلِيَفْتَحَ فرنسا ، ويَجتاحَ أورُبَّا .  
انطلقَ عبدُ الرَّحْمَنِ إلى الشَّمالِ ، في جيشٍ لم يَجمَعِ  
المسلمونَ مثله ، ودخلَ فرنسا في سنة ٨٣٢ هـ ،



وزحفَ إلى مدينةِ « آرل » ، الواقعةِ على نهرِ  
الرُّون ، ونشبتْ معركةٌ رهيبَةٌ ، يشيبُ من هولها  
الوليد ، انتهتْ بانتصارِ المسلمين ، وتقهرِ « أود »  
وجنوده .

وعبرَ عبدُ الرحمنِ نهرَ الجارون ، وانتشرَ في  
السَّهلِ الممتدِّ بين الرُّون شرقًا ، وخليجِ وسقونيا  
غربًا ، وبين اللُّوارِ شمالًا ، ونهرِ الجارونِ جنوبًا .  
وحاولَ « أود » أن يقفَ في سبيلِ ذلك السَّيلِ  
المتدفِّقِ ، ولكنه هُزمَ شرَّ هزيمة ، وفرَّ في نفرٍ من  
أصحابه إلى الشَّمال .

وقفلَ عبدُ الرحمنِ عائدا نحو الرُّون ، واختَرقتِ  
الجيشُ الإسلاميَّةُ برجونيا ، واستولتْ على ليون  
وبيزانسون ؛ وبعثَ سراياه فبلغتْ سانس ، التي  
لا يفصلُ بينها وبين باريس إلا مائة ميل فقط .

توغلتِ الجيشُ الإسلاميَّةُ ألفَ ميل ، من جبل

طارق حتى شطّان اللّوار ، وتفرّقت جيوش « أود »  
أيدي سبّا ، وهام أود على وجهه ، ولم يجد أمامه إلا  
عدوّه القديم « شارل مارتل » ، فانطلق إليه ،  
يلتمس منه النجدة والعون .

٥

كان شارل مارتل قد جمع جيشًا ضخمًا من  
الفرنّج ، ومن العشائر الجرمانية والعصابات المرتزقة  
فيما وراء الرّين ، وكان الجند نصف غرّة ،  
يتشخّون بجلود الذّئاب ، وتهدّل شعورهم فوق  
أكتافهم العارية .

سار شارل مارتل في جيشه الجرّار نحو الجنوب ،  
لملاقاة عبد الرّحمن ، الذي كان يلقى الرّعب في  
قلوب أهل المدن التي ينزل بها . ولم يسمع عبد  
الرّحمن بخروج شارل لقتاله ، فلم يتأهب للمعركة  
الفاصلة بين العرب والفرنّج ، بين الشرق والغرب .



انتهى الجيش الإسلامي في زحفه إلى السهل الممتد  
بين مدينتي بواتيه وتور ، واستولى المسلمون على  
بواتيه ، ثم هجموا على تور ، الواقعة على ضفة  
اللوار اليسرى ، وسرعان ما كانت ملك يمينهم ،  
كلمتهم فيها هي العليا .

وبلغ شارل مارتل نهر اللوار ، دون أن يشعر  
المسلمون بمقدمه ، فلما هم عبد الرحمن أن يقتحم  
اللوار ؛ لملاقاة أعدائه ، على الضفة اليمنى ، إذا  
بجيش شارل قد أقبل بجموعه الجرارة ، فلم يجد  
عبد الرحمن بداً من العودة إلى السهل ، والتأهب  
للموقعة ، التي أرغمه شارل على خوض غمارها .  
عبر شارل اللوار غرب تور ، وعسكر بجيشه إلى  
يسار الجيش الإسلامي ، الذي كان يغص بالسبي  
والأسرى والغنائم وثروات فرنسا ، وقدّر  
عبد الرحمن خطر هذه الغنائم على رجال جيشه ،

فحاولَ عَبَثًا أَنْ يُقْنِعَهُمْ بِالتَّخْلُصِ مِنْ بَعْضِهَا ، وَلَمْ  
يَشْتَدَّ فِي أَمْرِهِ خَشْيَةُ التَّمَرُّدِ وَالْعِصْيَانِ .

وَاشْتَعَلَتْ نِيرَانُ الْحَرْبِ ، وَتَقَارَعَتِ السُّيُوفُ ،  
وَمَشَى الرِّجَالُ إِلَى الرِّجَالِ مَشْيَ الْوُغُولِ ، وَارْتَوَتْ  
سَهُولُ فَرَنْسَا بِالدِّمَاءِ ، وَانْقَضَتْ ثَمَانِيَةُ أَيَّامٍ وَرَحَى  
الْحَرْبِ دَائِرَةً ، وَالْأَرْوَاحُ تَزْهَقُ ، وَالْأَجْسَادُ تَهْوِي  
عَنِ الْخِيُولِ ، وَأَنَاتُ الْجَرْحَى تَمْتَرُجُ بِصَهِيلِ الْخِيُولِ ،  
وَصَلِيلِ السُّيُوفِ ، وَأَقْبَلَ الْيَوْمُ التَّاسِعُ وَالْقِتَالُ دَائِرُ ،  
كُلٌّ مِنَ الْجَيْشَيْنِ ثَابِتٌ فِي مَكَانِهِ لَا يَزُولُ ، وَحَمِيٌّ  
وَطِيسُ الْقِتَالِ ، وَدَبَّ الْوَهْنُ فِي صَفُوفِ الْفَرَنْجِ ،  
وَكَادَ النَّصْرُ يُلَوِّحُ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَلَكِنْ حَدَثَ أَنْ فَتَحَ  
الْفَرَنْجُ ثَغْرَةً فِي الْجَيْشِ الْإِسْلَامِيِّ ، وَانْدَفَعُوا مِنْهَا  
صَوْبَ مُعَسْكَرِ الْغَنَائِمِ .

وَارْتَفَعَتْ صَيْحَةٌ فِي الْمِيدَانِ :

— أَلَا إِنَّ مُعَسْكَرَ الْغَنَائِمِ قَدْ سَقَطَ فِي أَيْدِي الْأَعْدَاءِ .



فتركت قوة كبيرة من فرسان المسلمين المعركة ،  
وتقهقرت للدفاع عن الغنائم ، وتخليصها من يد  
الأعداء ، وكأنما قد نسي المسلمون ما وقع يوم  
أحد لإخوانهم ، الذين كانوا مع النبي الكريم ، يوم  
زالوا عن أماكنهم ، ليشتروا في الغنيمة ، فدارت  
الدائرة عليهم ، وانقلب نصرهم هزيمة نكراء .

وهرع كثير من الجند للدفاع عن الغنائم ، فوقع  
الاضطراب في صفوف المسلمين ، وراح عبد الرحمن  
يحاول أن يعيد إلى جيشه النظام ، ولكن هيهات ،  
شغلته الدنيا عما هم فيه ، فإذا بسهم من سهام  
الأعداء يصيبه ، فيسقط مجذلاً ، يخبط في دمائه .

رأى المسلمون مقتل قائدهم ، فدب الدعر في  
صفوفهم ، وراحت سيوف الفرنج تعمل في  
رقابهم ، ولكنهم صمدوا حتى أرخى الليل سدوله ،  
وافترق الجيشان ، ينتظران طلوع النهار ، وفي

الليل ، انسحب المسلمون ، فلم يعد هناك أمل في النصر .

وفي صبيحة اليوم التالي ، رأى أود وشارل مارتيل ، الهدوء المسيطر على المعسكر الإسلامي ، فبعث رُسُلَه ، فأخبروه أن العرب قد انسحبوا ، تاركين غنائمهم وجرحاهم ، الذين لم يستطيعوا الانسحاب ، وخشى شارل أن يكون ذلك كميناً ، فلم يتقدم خلف العرب المنسحبين ، بل اكتفى بالعودة ، بعد أن انتهت معركة « بلاط الشهداء » ، بوقف سيل العرب المتدفق ، وإنقاذ أوربأ من الاحتلال الإسلامي ، وحطم أمل المسلمين في سيادة العالم كله .